نَثْرُ الأعرابِ في مؤلفات البصريين
(دراسة أسلوبية)

المدرس الدكتور جاسم صادق غالب
جامعة البصرة ـ كلية الآداب

المقدمة:

تتمظهر اللغة بشكلين؛ نثر وشعر، ولكل واحد منهما خصائص وصفات تميزه عن صنوه، والبحث الموسوم بـ(نثر الأعراب في مؤلفات البصريين، دراسة اسلوبية) يسعى إلى دراسة اسلوبية النثر الذي دُوِّنَ في مؤلفات المدرسة البصرية، من خلال مدخل يوضح فيه مصطلحات العنوان ومبحثين: المبحث الأول يتناول خصائص التركيب في نثر الأعراب عِبَر دراسة أسلوب الفصل الذي تجلى بأشكال متعددة كالفصل بين كان واسمها أو بين كان وخبرها، والفصل بين المبتدأ والخبر والفعل والمفعول ونحو ذلك. وتناول اسلوب الحذف أيضاً، سواء في ذلك حذف المبتدأ، أم حذف الفعل أم غير ذلك، ثم تابع بيان تلك الخصائص من خلال قلب التركيب والتعدد. أما المبحث الثاني فيأخذ على عاتقه بيان خصائص الصورة الفنية التي أجاد فيها الأعرابي في كلامه، فأوضح الصورة التي جاءت باستعمال التشبيه أولاً، ثم استتبع ذلك بالصورة التي كَمُنتْ في استعمال الاستعارة، ثم الكناية ثالثاً.وختمت الدراسةُ البحثَ بخاتمةٍ وتوصياتٍ وقائمةٍ بأسماء المصادر والمراجع التي استقى البحث مادته منها. لقد اعتمد الباحث على المنهج الاستقرائي في جمع المادة المراد دراستها،

فبحث في مؤلفات العلماء ممن عُرِفَ عنه باتباع المدرسة البصرية، وفي اعتماد هذا المنهج يسجل الباحث أمرين:

أ- لم يتناول الباحثُ النثرَ إلا ما عرَّف به المؤلفُ أنه صدر عن (أعرابي)، وبناءً على ذلك فإن نسبة أي نثرٍ إلى مجهولٍ لم يذكر المؤلفُ أن المتكلمَ إعرابيٌ قد أُبعِد عن الدراسة؛ ذلك أن عدم تقييد المتكلم بأنه (إعرابي) يعطي احتمال كونه من أهل الحضر، أو ممن لم يوثق بعربيته أو نحو ذلك.

ب- لم يشر الباحثُ إلى الكثير من مؤلفات علماء المدرسة البصرية للأسباب الآتية:

1- تكرار نثر الأعراب المنقول فيها.
2- القيد الذي ذكر في الفقرة رقم (1).
3- الخوف من ثقل الهوامش بتعدد المصادر مع وجود النثر في المصادر أخرى.

التمهيد: نبدأ بتعريف الأعراب؛ لأنّ معرفة هذا المفهوم ضرورة قبل غيره من مصطلحات العنوان الأخرى. فإذا تم توضيحه للذّهن سهل علينا تحديد الكلام النثري الصادر عنهم. وإنّ مصطلح النثر أوضح من مصطلح الأعراب ويأتي في المرتبة الثانية لأنه فعل لغوي ناتج من الأعراب أنفسهم فهم متقدمون على فعلهم. لذلك نبدأ بتحديد دلالة الأعراب.

دلالة الأعراب: جاء في لسان العرب ((العُرْبُ والعَرَبُ جِيْلٌ من الناس معروف خلافُ العَجَم وهما واحدٌ...والعَرَبُ العاربة هم الخُلَّصُ منهم. تقول عَرَبٌ عارِبةٌ وعَرْباءُ صُرَحاءُ ومُتَعَرِّبةٌ ومُسْتَعْرِبةٌ دُخَلاءُ ليسوا بخُلَّصٍ والعربي منسوب إلى العرب وإن لم يكن بدوياً والأعرابي البدوي وهم الأعراب والأعاريب جمع الأعراب))[1]. ولا يعد أيُّ أحدٍ إعرابياً بل لابد أن يكون ((بدوياً صاحب نُجْعة وانتواء وارتياد للكلأ وتتبع لمساقط الغيث، وسواء كان من العرب أو من مواليهم))[2]. مما تقدم يمكن أن نفهم أن مَن ((نَزَلَ البادية أو

جاور البادين وظعن بظعنهم وانتوى بانتوائهم فهم أعراب ومن نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها ممن ينتمي إلى العرب: فهم عرب وإن لم يكونوا فصحاء))[3]. من أجل ما تقدم ذكرُهُ نرى ابن قتيبة يعرف الأعرابي بقوله((الأعرابيٌّ هو البدويُّ))[4] والجاحظ يجعل الأعرابيّ قدوة في الإعراب والكلمات[5] والنثر كلام غير موزون.

المبحث الأول:

خصائص التركيب النحوي:

تتشابك الالفاظ اللغوية فيما بينها لتشكل مركباً لغوياً فيه دلالة خاصة به، يعرف باسم التركيب. ولكل تركيب لغوي خصائص لغوية معينة تميزه عن غيره، وهذه الخصاص تتميز أكثر إذا توجه التركيب نحو مغايرة النمط الألوف عن المتلقي، وهذا ما نراه في نثر الأعراب، الذي شمل مجموعة من الخصائص، منها:

أولاً: الفصل:

الفَصلُ في اللغة هو بون ما بين الشيئين[6]، و((الفَصْل الحاجِز بين الشيئين فَصَل بينهما يفصِل فَصْلاً فانفصَل وفَصَلْت الشيء فانفصَل أَي قطعته فانقطع))[7]. أما في البلاغة فالوصل هو عطف قسم من الجمل على قسم، والفصل تركهُ. ويقع الفصل في خمسة مواضع هي كمال الاتصال وكمال الانقطاع وشبه كمال الاتصال وشبه كمال الانقطاع والتوسط بين كمال الاتصال وكمال الانقطاع مع قيام المانع من الفصل[8].اما الوصل فيقع في ثلاثة مواضع وهي كمال الانقطاع مع الإيهام والثاني أن تكون الجملتان متفقتين خبراً وإنشاءً لفظاً ومعنىً والثالث أن يكون للجملة الأولى محل من الإعراب وقصد إشراك الثانية لها في الحكم الإعرابي[9]. الفصل و الوصل في التركيب

اللغوي من ابرز وسائل إيضاح جمال المعنى فيعرضه جليا واضحا من دون لبس في فهم دلالته الترابطية سواء بالوصل أم بالفصل، هذا من جانب ومن جانب آخر قدرته على إثارة عقل المتلقي بمختلف جوانبه و إثارة نفسيته بمختلف نزعاته و ميوله وكذا وجدانهم و أذواقهم[10].

الفصل بالقسم:

الناظر في كلام الأعراب يجد ظاهرة أسلوبية يتمتع بها وهي الفصل بين أجزاء التراكيب بأسلوب القسم، ويختصّ باسم (الله) فقط. وهو اسم يُهيمن على تعبيراتهم. ويأتي في مواطن متنوّعة منها؛ ليُعطي الكلامَ دلالةً صادقةً تنبعُ من فطرتهم الصافية التي تعرفُ هذا الاسم المبارك. وتلجأُ إليه؛ ليكونَ دليلاً واضحاً تقبله النفوس؛ كونه يدلُّ على معرفة منغرسة في ثقافتهم العامة ومعنى راسخ في ذواتهم. من أجل ذلك ذكر النحويُّون، عند كلامهم على (القَسَم)، أنَّ الغرض منه (التوكيد). قال سيبويه: ((اعلم أنَّ القسم توكيد لكلامك))[11]، وقال ابن يعيش: ((اعلم أنَّ الغرض من القسم توكيد ما يقسم عليه من نفي أو إثبات))[12]. ولهذا الفصل اللغوي حالات نذكر أبرزها:

1- الفصل بين كان واسمها: مدح أعرابيّ رجلاً، فقال:((كان واللهِ لسانُه أرقَّ من ورقةٍ، وألينَ من سَرَقَةٍ))[13].

2- الفصل بين كان وخبرها: وصف أعرابي أعرابياً بالإيجاز والإصابة فقال: ((كان واللهِ يَضَعُ الهِناءَ مواضعَ النُّقبِ))[14].

3- الفصل بين المبتدأ وخبره قال آخر: ((نحنُ واللهِ آكلُ منكم للمأدومِ، وأكسبُ منكم للمعدومِ، وأعطى منكم للمحرومِ))[15]. وقف أعرابيٌّ يسألُ قوماً فقالوا له: ((عليك بالصَّيارفةِ. فقال: هناكَ واللهِ قَرارةُ اللؤمِ))[16]. وصف أعرابيٌّ رجلاً. فقال: ((ذاك واللهِ ممّن ينفعُ سِلْمه، ويُتواصفُ حِلمه، ولا يُستمرأُ ظُلْمه))[17].

4ـ الفصل بين الفعل ونائب الفاعل:ويروي الأصمعي أنه سَمعَ أعرابياً يقول لآخر: ((أتُرى هذه العجم تَنْكِحُ نساءَنا في الجنة ؟ قال: أرى واللهِ بالأعمالِ الصالحة، قال: تُوطَأُ واللهِ رِقابُنا قبل ذلك!!))[18].

5ـ الفصل بين الفعل والمفعول به:قال أعرابيٌّ لأحدهم: ((تعلّمْ واللهِ أنّك قليل الخالاتِ بالدّهْنا))[19].

6ـ الفصل بين الفعل والمصدر ((قال أعرابيٌّ: ظلمني واللهِ ظلماً عبقريًّا))[20].

7ـ الفصل بين الفعل وفاعله:أجاب أعرابيٌّ عن سؤال((أتأكلون القَرَنْبَى ؟ قال: طال واللهِ ما سال ماؤُه على شدقي))[21].

الفصل بين الفعل والمفعول بغير القسم:وسُئل أعرابي عن ابنه فقال: ((أعطيه من مالي في كل يوم دانِقاً وأنه لأسْرَعُ فيه من العُث في الصوف في الصيف))[22].

8ـ الفصل بين الفعل وفاعله بغير القسم:وذكر الأصمعي أن أعرابياً دخل البصرة فرأى قوماً يدخلون دار العُرْس، فأراد أن يدخل فدُفع فقال: ((انبلق لي باب فاندفقتُ فيه فدُلِظ في صدري.))[23].

ثانياً: الحذف:

الحذف في اللغة الاسقاط. قال الجوهريّ:((حذفُ الشّيء: إسقاطه. يقال: حذفت من شعري، ومن ذنب الدّابّة، أي: أخذت))[24]. وقال الزّبيديّ بعد أن أورد كلام الجوهريّ السّابق: ((وقال غيره: حذَفَهُ حَذْفا: قطعه من طرفه، و(الحجّام يحذف الشّعر)، من ذلك))[25]. أما الحذف في الاصطلاح النّحويّ والبلاغيّ فهو كما عرّفه الرّمّاني: ((إسقاط كلمة للاجتزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام))[26] أو هو: ترْكُ ذكْرِ شيءٍ من الكلام، أو هو عبارةٌ عن إسقاطِ كلمةٍ[27]، والحذف ((باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ،عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجدك انطق ما تكون إذا لم

تنطق، وأتم ما يكون بياناً إذا لم تبن))[28] ولم يخلُ نثر الأعراب من هذا الباب الدقيق والمسلك اللطيف، وقد تجلى بالصور الآتية:

حذف المبتدأ: قيل لأعرابيّ: ما الجمالُ ؟ قال:((طُول القامة وضِخَمُ الهامة، ورُحبُ الشِّدق، وبعدُ الصَّوت))[29]. بمعنى الجمال طُولُ القامة وضِخَمُ الهامة، ورُحبُ الشِّدق، وبعدُ الصَّوت. قال أعرابيٌّ في وصف رجل((صغيرُ القَدْرِ، قصيرُ الشَّبْرِ، ضَيّقُ الصدرِ، لئيمُ النَّجْرِ، عظيمُ الكِبْرِ، كثيرُ الفخْرِ))[30]. أي هو صغيرُ القَدْرِ، قصيرُ الشَّبْرِ، ضَيّقُ الصدرِ، لئيمُ النَّجْرِ، عظيمُ الكِبْرِ، كثيرُ الفخْرِ. قال آخر عن المسافة بين بلدين ((عُمرُ ليلة، وأديمُ يومٍ. وقال آخرُ: سوادُ ليلة، وبياضُ يومٍ))[31] وقال رجلٌ لأعرابيٍّ: ((كيف فلانٌ فيكم ؟ قال: مرزوقٌ أحمق !))[32] وقيل لأعرابيٍّ: ما الغبطةُ ؟ قال: ((الكفايةُ مع لزوم الأوطان، والجلوس مع الإخوان. قيل له: فما الذّلةُ ؟ قال: التّنقلُ في البلدان، والتّنحي عن الأوطان))[33].

حذف الفعل: يعد حذف الفعل من الخصائص التي شاعت في نثر الأعراب، ويمكن أن نجد له نماذج متعددة، منها: قال أعرابيٌّ للحجّاج في طعام دعاه إليه وكان الأعرابيٌّ صائماً: ((إنّه طعامٌ طيّبٌ قال ما طيّبه خبّازك ولا طبّاخُك ! قال: فمن طيّبه ؟ قال: العافية))[34]. قيل لأعرابيّ ((من أين أقبلتَ ؟ قال: من هذه البادية. وأين تسكنُ منها ؟ قال: مساقطَ الحمى))[35] وقالتْ أعرابيّةٌ لابنها: ((إذا جلستَ مع الناس فإنْ أحسنتَ أنْ تقول كما يقولون فقلْ، وإلا فخالفْ تُذكر!))[36] قال أعرابيٌّ في زوجته بعد أنْ شكته إلى السلطان عن سؤال: ((ما صنعتْ ؟ قال: خيراً، كبّها اللهُ لوجهها وأمر بي إلى السّجن))[37] جاء أعرابيٌّ بدرهم فقيل له: ((هذا زائفٌ فمن أعطاكه ؟ قال:: لصٌّ مثلُك !))[38].

حذف (من) بعد اسم التفضيل: من مواطن الحذف الاسلوبي في نثر الأعراب حذف (من) بعد اسم التفضيل، ومن نماذجه: قول الأعرابيّ لآخر

يمدحه ((واللهِ ما رأيتُ أكرمَ ضيافةً ولا أهدى لسبيلٍ ولا أرمى كفًّا، ولا أوسعَ صدراً، ولا أرغبَ خوفاً، ولا أكرمَ عفواً منك))[39].

حذف الظرف: قال الأصمعي: ((قال أبو عمرو بن العلاء: سمعت أعرابياً يقول: مكثتُ ثلاثاً لا أذقهن طعاماً ولا شراباً، أي لا أذوق فيهن))[40].

ثالثاً: قلب التركيب:

المراد من قلب التركيب هو استعمال تركيب معين بألفاظ معينة ثم تغير ألفاظ هذا التركيب في تركيب آخر بتقديم وتأخير. ومن نماذجه:إجابة أعرابيّ عن سؤال وجه إليه عن حاله، فقال: ((أجدني أجدُ ما لا أشتهي. وأشتهي ما لا أجدُ، وأنا في زمانٍ من جادَ لم يَجِدْ، ومَنْ وَجَدَ لم يَجُدْ))[41]. قول الأعرابيّ لرجلٍ: ((إنّي لم اصُنْ وجهي عن الطلب إليك، فصُنْ وجهَك عن ردّي، وأنزلني من كرمك بحيثُ وجهي من رجائك))[42]. قول أعرابيٌّ: ((اللهُ يخلفُ ما أتلف الناسُ، والدهر يُتلفُ ما جمعوا))[43] .

رابعاً: التعدّد:

يسير التركيب اللغوي في الكلام العربي على نسق عُرِفَ وشاع في الكلام بيد أن هناك قسماً منه يتكرر في التركيب، وهذا ما يعرف بالتعدد. وقد وجدنا فيما وقع تحت عملية استقراء نثر الأعراب، أن هذا التعدد يأخذ نماذج متعددة، منها:

تعدّد الخبر: قد يتعدد الخبر ويكون المبتدأ واحداً. والنحويون مختلفون في جواز هذا التعدد بغير حرف العطف مثل قولك: زيد قائم ضاحك[44]. فجعل النحاة ذلك على ضربين[45]:

الأول: أن يكون معنى الأخبار، معنى خبرٍ واحد متحصل منهمْ معاً، من ذلك قولهم: (هذا حُلْوٌ حامضٌ)، فمعنى الحلو والحامض معاً هو معنى يجمع بين هذين المعنيين معاً.

أما الثاني: أن يكون معنى كل خبر من هذه الاخبار يختلف عن معنى الخبر الآخر. ثم أختلف النحاة في ذلك، فذهب البصريون إلى جواز الضرب الأول فقط؛ لأن المعنى واحد فيها جميعاً. وأما الضرب الثاني فقدّروا فيه لكل خبرٍ منها مبتدأ محذوفاً[46].

ومن نماذج النثر نذكر الآتي:

قال أعرابيٌّ: ((نومةُ الضُّحَى مجْعَرةٌ مجْفرةٌ مبْخَرَةٌ))[47]. وقال أعرابيٌّ في زوجته ((إنّها لحمقاءُ مرْغامةٌ،أكُولٌ قامَّةٌ))[48]. وقال بعض الأعراب: ((إنّه لنمّامٌ نَمْليٌّ))[49]. النمليُّ النّمام

تعدّد خبر كان: قال آخرُ: ((رحم اللهُ فلاناً، فلقد كان كثيرَ الإهالة دَسِمَ الأشداق))[50].

تعدّد الحال: سأل الحجاجُ أعرابياً عن أخيه محمد بن يوسف: ((كيف تركتَه ؟ فقال: تركتُه بضًّا عظيماً سميناً. قال: لستُ عن هذا أسألُك. قال: تركتُه ظَلوماً غشوماً))[51].

خامساً: التقديم والتأخير:

التقديم والتأخير ((هو أحد أساليب البلاغة، فإنهم أتوا به دلالة على تمكنهم من الفصاحة وملكتهم في الكلام وانقياده لهم، وله في القلوب أحسن موقع وأعذب مذاق))[52] وهناك أسباب لتقديم لفظ على آخر، يأتي في مقدمتها العناية والاهتمام[53]. فالتقديم والتأخير إنما يدخل التركيب ((لغرض بلاغي ولسر من أسرار التعبير، يُكسِبَ الكلامَ جمالاً وتأثيراً لأنه سبيل إلى نقل المعاني في ألفاظها إلى المخاطبين كما هي مرتبةٌ في ذهن المتكلم حسب أهميتها عنده))[54]، فبمجرد مخالفة الترتيب العام ينبئ عن هدف معين وذلك الهدف

هو إبراز كلمة ما لتوجيه التفات السامع إليها[55] ((فالبعد النفسي له دلالته وتأثيره في نفس السامع لأمور كانت نفسه تتشوق إلى معرفة شيء معين فإذا ما أُلقي إليه مقدماً أطمأن وارتاح إلى ذلك، ثم إن المتكلم ونتيجة لبعده النفسي لا يجد في تأخير الحدث ذلك البعد وذلك الاهتمام الذي يريد أن يقوله))[56].

لذا أكد ذلك الجاحظ حين قال: ((كان القدماء يوصون المتكلم بأن يجتهد في ترتيب ألفاظه وتهذيبها وصيانتها في كل ما يخل بالدلالة ويعوق دون الإبانة..))[57]. وللتقديم والتأخير أشكال في كلام الأعراب. منها:

تقديم الخبر على المبتدأ: قال الأصمعي: ((صلّى أعرابيٌّ فأطال الصلاةَ، وإلى جانبه ناسٌ، فقالوا: ما أحسنَ صلاتَه ! فقال: وأنا مع هذا صائمٌ))[58].

تقديم المفعول به على الفاعل: قال أعرابيٌّ: ((إنّه ليقتلُ الحُبارى جُوعاً ظُلْمُ الناسِ بعضِهم لبعض))[59].

تقديم الجار والمجرور على الفاعل: شكر أعرابيٌّ رجلاً أولاه جميلاً فقال: ((لا ابتلاك الله ببلاء يَعجز عنه صبرك، وأنعم عليك نعمة يعجز عنها شكرك))[60].

تقديم الجار والمجرور على خبر كان: قالتْ أعرابية لابنها: ((أما كان بطني لك وِعاءً ؟ أما كان حِجْري لك فِناءً ؟ اما كان ثديي لك سِقاءً))[61]. وقال شيخ أعرابيٌّ في معرفته للنجوم:((أما إنّها لو كانتْ أكثرَ لكنتُ بشأنها أبصرَ ولو كانتْ أقلَّ لكنتُ لها أذْكرَ))[62].

تقديم خبر إنّ على اسمها: دعا أعرابيٌّ: ((اللّهم إنّ لك عليّ حقوقاً فتصدّقْ بها عليّ، وللناسِ تبعاتٌ فتحمّلها عني، وقد أوجبتَ لكل ضعيفِ قِرىً وأنا ضيفُك، فاجعلْ قِرايَ في هذه الليلة الجنّةَ))[63].

تقديم الجار والمجرور على المفعول به: قال أعرابيٌّ لرجل((يا هذا، إنّي لأرى عليك قطيفةً محْكمةً من نسْجِ أضْراسِك))[64].

المبحث الثاني:

خصائص الصورة الفنية:

الصورة الفنية في أبسط تعريفاتها هي إحدى طرق التعبير تنحصر أهميتها فيما تحدثه في معنى من المعاني من خصوصية وتأثير[65] د.الدكتور عبد القادر القط بأنها((الشكل الفني الذي تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها المبدع في سياق بياني خاص ليعبر عن جانب من جوانب التجربة الفنية الكاملة في النص مستخدما طاقات اللغة وإمكاناتها في الدلالة والإيقاع والتركيب))[66] والأنواع الأدبية للصورة الفنية كثيرة ومتعددة أشهرها التشبيه والاستعارة والكناية[67].

أولاً ـ التشبيه:

قال صاحب الصحاح في اللغة:((شِبْهٌ وَشَبَهٌ لغتان بمعنىً. يقال: هذا شِبْهُهُ، أي شَبيهُهُ. وبينهما شَبَهٌ بالتحريك، والجمع مَشابَهُ على غير قياس(...) والمُتشابِهاتُ: المُتَماثلاتُ. وتَشَبَّهَ فلان بكذا. والتَشْبيهُ: التمثيلُ. وأَشْبَهْتُ فلاناً وشابَهْتُهُ. واشْتَبَهَ عليّ الشيء))[68]. أما في الاصطلاح، فللتشبيه أكثر من تعريف عند علماء البلاغة وهذه التعاريف وإن اختلفت لفظاً فإنها متفقة معنى ومن هذه التعاريف: ((الدلالة على اشتراك شيئين في وصف هو من أوصاف الشيء في نفسه كالشجاعة في الأسد والنور في الشمس))[69]. وأركانه أربعة:[70].

1- **المشبه:** هو الأمر الذي يراد إلحاقه بالمشبه به.

2- **المشبه به:** هو الأمر الذي يلحق به المشبه. وهذان الركنان يسميان طرفي التشبيه.

3- **وجه الشبه:** هو الصفة أو الصفات التي تجمع بين المشبه والمشبه به ويكون في المشبه به أقوى منه في المشبه.

4- **أداة التشبيه:** هي اللفظ الذي يدل على التشبيه ويربط المشبه بالمشبه به كالكاف ونحوها وقد تكون ملفوظة أو مقدرة.

والفائدة من التشبيه في الكلام هي((انك إذا مثلت الشيء بالشيء فإنما تقصد به إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به أو بمعناه وذلك أوكد في طريق الترغيب فيه أو التنفير عنه، ألا ترى انك إذا شبهت صورة بصورة هي أحسن منها كان ذلك مثبتا في النفس خيالاً حسناً يدعو إلى الترغيب فيها وكذلك إذا شبهتها بصورة أقبح منها كان ذلك مثبتاً في النفس خيالاً قبيحاً يدعو إلى التغيير عنها وهذا لا نزاع فيه))[71]. أما الصور التشبيهية المكونة للصورة الفنية في نثر الاعراب، فيمكن أن نجدها في كلامهم الآتي:

وصف أعرابيٌّ خلْقَ أعرابيٍّ فقال: ((كأنّ في عضَلَته خُزَزًا، وكأنّ في عضده جُرَذًا))[72]. ووصف بعض الأعراب ماءً لبني تميم قائلاً: ((تركتُ جُرادَ كأنّها نعامةٌ باركةٌ))[73] ويروى أنّ أعرابيًّا كلّم صاحبه، فرآه لا يفهم عنه ولا يسمع كلامَه. فقال: ((أصَلَخٌ كصَلَخِ النّعامةِ!))[74]. الصلخ الصمم وذهاب السمع. وعن بعض العرب يلقّب بالنعامة لشدّة صممه وأنّ الظليم يعرف بأنفه وعينيه [75]. قال أعرابيٌّ يهزأ بصاحبه: ((اشترِ لي شاةً قَفْعاءَ، كأنّها تضحك: مندلقةً خاصرتاها، كأنّها في مَحْمِل، لها ضَرْعٌ أرقط، كأنّه ضَبٌّ))[76]. الاندلاق البروز والخروج. قال أعرابيٌّ ((تمرُنا خرسٌ فُطْسٌ يغيبُ فيه الضِّرس كأنّ نواه ألسنُ الطيرِ، تضع التمرةُ في فيك فتجد حلاوتَها في كعبِك))[77].

ثانيًا ـ الاستعارة:

الاستعارة في اللغة مأخوذة من العارية أي نقل الشيء من شخص إلى آخر حتى تصبح تلك العارية من خصائص المعار اليه. والعارية والعارة: ما

تداولوه بينهم وقد أعار الشيء أعاره منه وعاوره إياه. و المعاورة، و التعاور شبه المداولة، والتداول يكون بين اثنين. وتَعوّر واستعار: طلب العارية[78] أما في الاصطلاح فقد عرفها الجرجاني (ت474هـ) بقوله: ((الاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بالشيء، فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره، وتجيء إلى اسم المشبه به فَتُعيرُه المشبه وتجريه عليه)) [79].

ثم جاء السكاكي (ت626هـ) واعتمد على كلام الجرجاني (ت474هـ) في تفصيله للاستعارة فعرفها تعريفاً دقيقاً، فقال :((هي ان تذكر احد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر، مدعياً دخول المشبه في جنس المشبه به، دالاً على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به))[80]. ومن المعروف انّ أصل الاستعارة تشبيه حذف منه أحد ركنيه الأساسيين إما المشبّه واما المشبّه به والمستعار له وهو المشبه والمستعار ويقصد به اللفظ المنقول. وعليه فالاستعارة تتألف من ثلاثة اركان، وهذه الاركان هي المستعار منه، وهو المشبه به، والمستعار، والمستعار له. ويمكن توضيح الاستعارة التي وجدت في كلام الاعراب على النحو الآتي:

((قال أعرابيٌّ: خرجتُ حين انحدرتْ ايدي النّجوم، وشالتْ أرجلها، فلم أزلْ أصدعُ الليلَ حتّى انصدعَ الفجرُ))[81]. في هذه التراكيب المتعددة استعمل الأعرابي استعارات متعددة منها(أيدي النجوم) و(شالت أرجلها)، فالمستعار له هو الليل لكنه قد حذف من التركيب وبقي المستعار وهو أيدي النجوم وشالت أرجلها.، واعارة الايدي والارجل من الحيوان المتحرك إلى الليل دلت عليه فرينة النجوم. و((قال الأصمعي: سمعتُ أعرابيّاً يقولُ: مَنْ ولّدَ الخيرَ نُتِجَ له فِراخاً تطيرُ بالسّرور، ومَنْ ولّدِ الشّرَّ أنبتَ له نباتاً مُرًّا مذاقُه، قُضْبانُه الغيظُ، وثمرُه النّدمُ))[82] سئل ((قيل لأعرابيٍّ: ما بالُ المراثي أجودَ أشعاركم؟ قال: لأنّا نقولُ وأكبادُنا تحترقُ))[83]. هنا استعار الأعرابي الاحتراق مما يحترق، وأعطاه إلى الاكباد، ومن ثم فان المستعار هو الإحراق وهذا من جميل الكلام النثري، إذ ينقل الأعرابي التى المتلقي الكيفيات النفسانية _ الألم

– عبر صورة فنية قد ألفها السامع من مشاهداته اليومية، لكنه لم يألفها في قرارة النفس الانسانية. قالتْ أعرابية في امرأة معها عشرة بنين مثل الصقور((لقد ولَدتْ أمُّكم حُزْناً طويلاً))[84]. وذكر أعرابيٌّ بلده فقال: ((رَمْلةٌ كنتُ جنينَ رُكامها، ورضيعَ غمامها، فحضنتني أحشاؤها، وأرضعتني أحساؤها))[85]. هذه الاستعارة من جميل الكلام العربي، فكيف جعل الأعرابي نفسه جنيناً لركام البلد الذي كان يعيش فيه، وكيف اختار للرضيع غماماً، ثم لهذه البلدة احشاءً وحساءً، وهذا الأعرابي يرضع من ذلك الحساء وهو طفل ملؤه الدفء والحنين في حضن بلده، في مدة رضاعه، فكل هذا تصوير جميل جداً. سُئِلَ أعرابيٌّ:((ما أصبرَكم على البدْو ! قال: كيف لا يصبر مَن وطاؤه الأرضُ وغطاؤه السّماءُ وطعامُه الشّمسُ، وشرابه الريحُ))[86]. في هذه الصورة الاستعارية جعل الأعرابي لنفسه وطأً وغطاءً وشراباً، ثم نسب هذا الوطء والغطاء والطعام والشراب إلى أمور جمادية ليعطي صورة فنية جميلةً جداً عن حياة البدو.

ثالثاً ـ الكناية:

الكناية في اللغة، كنى فلان عن فلان أو عن اسم كذا، اذا تكلم بغيره مما يستدل به عليه، نحو الجماع والغائط والرفث وغير ذلك[87]. وجاء في لسان العرب أن المراد من الكناية ((أن تتكلم بشيء وتريد غيره، وكنّى عن الامر بغيره يكنّى كناية (...) وتكنّى وتحجى، تستر من كنى عنه اذا ورى، أو من الكنية))[88]. أما في الاصطلاح، فهي عبارة عن ((لفظ أريد به لازم معناه مع جواز أرادة معناه حينئذ))[89]، والفارق بين المجاز والكناية أن في الكناية قرينة لا تمنع من إرادة المعنى الأصلي بخلاف المجاز، وأركان الكناية ثلاثة[90]:

الأول: المكنى به: وهو دلالة اللفظ الظاهرة التي تكون دليلاً على مراد المتكلم.

الثاني: المكنى عنه: وهو المعنى اللازم للمكنى به الذي يرمي إليه الناطق بالكناية.

الثالث: القرينة العقلية: وهي التي تظهر من سياق الكلام والتي ترشد إلى المكنى عنه. وتمنع من إرادة المعنى المكنى به. وتتجلى الصورة الكناية في كلام الأعاريب الآتي:

قيل لأعرابيّ: مات فلانٌ أصحَّ ما يكون؛ فقال((:أو صحيح مَنْ في عنقه الموتُ !))[91]. وشهد أعرابيٌّ عند معاوية بشهادة، فقال له معاوية: ((كذبتَ ! فقال له الأعرابيُّ: الكاذبُ والله مُتَزَمِّلٌ في ثيابِكَ))[92]. ويروى أن أعرابيّاً قال: ((أرأيتَ مَنْ لا شربَ ولا أكل ولا صاحَ واستهل، أليس ذلك يُطَلُّ؟!))[93]. كناية عن الجنين ويطلّ يذهب دمه هدراً. دعا أعرابيٌّ قائلاً:((اللهم لا تُنْزلني ماءَ سوءٍ فأكونَ امرأَ سَوء ! يقول: يدعوني قِلّتُه إلى منعه))[94]. أراد الأعرابي الطلب من الله سبحانه وتعالى أن لا ينزله بلداً قليلاً خيره، فيكون هذا الاعرابي شحيحاً لشحة خير البلد، فكنى عن الخير القليل ب(ماء سوء)، لأن ماءه حينئذٍ لا يروي أهل البلد فضلاً عن حيوانه ونباته. وسُئلتْ أعرابيّةٌ فقيل لها: ((أتعرفين النجومَ ؟ قالتْ: سبحان الله ! أما أعرف أشباحاً وقوفاً عليَّ كلَّ ليلة!))[95]. كنَّتْ الأعرابيةُ عن النجوم بالأشباح لأنها أنوار معلقة في السماء ليلاً وسئل أعرابي: أتعرف الأشهرَ الحُرُم؟ فقال: ((نعم، واحدٌ فَرْد وثلاثةٌ سَرد؛ يعني بالفرد رَجَباً، والثلاثة المتّصلة يعني بها ذا القَعدة وذا الحِجّة والمحرّم))[96] ويبدو أن الأعرابي أراد من فرد شهر رجب وهو أحد اشهر الحرم، لكنه منفرد بين الاشهر العربية بعد جمادي الآخر وقبل شعبان، وهما ليسا من الاشهر الحُرم. بيد أننا نلاحظ الاشهرَ ذا القعدة وذا الحجة ومحرم الحرام من الأشهر التي تأتي تباعاً، لذا كنى عنها بالسرد بمعنى أنها متصلة أحدها بعد الآخر.

الخاتمة:

يتوجه البحث في ختام هذه الدراسة إلى تسجيل خاتمته، التي يمكن إدراج فقراتها على النحو الآتي:

1- احتوى نثر الأعراب على جملة من الخصائص الأسلوبية على مستويين؛ بنية التركيب وبنية الصورة الفنية في بينية التركيب.
2- أوضحت تلك الخصائص القدرة الإبداعية عند الأعرابي في نثره، بالشكل الذي جعله – النثر – يتوازى إبداعياً مع شعر الأعرابي.
3- عكس نثر الأعراب صورة واضحة المعالم عن اللغة الفنية النابعة من الفطرة اللغوية السليمة حتى تعجب إعرابي من إعرابي ورواة اللغة منهم.
4- نتيجة القدرة الإبداعية والصورة الواضحة لنثر الأعراب كان من المصادر المهمة في تكوين بنية النظام اللغوي وقواعده.
5- لقد تجلت البلاغة العربية بشكل واضح في نثر الأعراب، فلا نعدم أن نجد في هذا النثر مسائل علم المعاني وعلم البيان وعلم البديع.

توصيات.

1- نقترح قيام مؤسسات علمية بجمع نثر الأعراب وشرحه ودراسته، لأنه ثروة لغوية هائلة وهي خير معين لإعادة النظر بما وقع الخلاف اللغوي بشأنه في الشعر العربي، ومن ثَمَّ طرح الشاهد المصنوع الذي يخالف ما ثبت في نثر الأعراب.
2- كما درست شواهد الشعر العربي في النحو العربي لابد من دراسة نثر الأعراب، لمعرفة المساهمة الفاعلة لنثر الأعراب في تكوين النظام اللغوي.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير الخلق محمد وآله الطاهرين.

الهوامش:

1. لسان العرب، ابن منظور: مادة (عرب) 31/ 2863-2864.
2. تهذيب اللغة، الازهري: مادة (عرب) 360/2.
3. لسان العرب: مادة (عرب) 2864/31.
4. أدب الكاتب، ابن قتيبة: 39.
5. ينظر: الحيوان، الجاحظ:150/2 -151.
6. ينظر: تهذيب اللغة: مادة (فصل) 192/12.
7. لسان العرب: مادة (فصل)3422/37.
8. ينظر الإيضاح، الخطيب القزويني: 246/1.
9. ينظر: المصدر نفسه: 246/1.
10. ينظر: الفصل والوصل في القران الكريم، د. منير سلطان:193.
11. الكتاب، سيبويه: 104/3، وينظر: اللمع في العربية، ابن جني:121.
12. شرح المفصل، ابن يعيش: 90/9.
13. البيان والتّبيين، الجاحظ: 169/1.
14. المصدر نفسه: 107/1.
15. المصدر نفسه: 298/1.
16. المصدر نفسه: 96/2.
17. المصدر نفسه: 297/2.
18. الكامل، المبرد: 1375/3.
19. المصدر نفسه: 563/2.
20. الحيوان: 190/6.
21. المصدر نفسه: 385/6.
22. جمهرة اللغة، الزبيدي: مادة (ث ع ع)1/ 83.
23. المصدر نفسه: مادة (ب ق ل) 1/ 371 -372.
24. الصّحاح، الجوهري: مادة (حذف) 4/ 1341.
25. تاج العروس، الزّبيدي:مادة (ح ذ ف) 23/ 121.
26. النّكت في إعجاز القرآن: 70.
27. ينظر: حسن الترسل في صناعة الترسل، الحلبي: 36.

28. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني: 146.
29. البيان والتّبيين: 121/1.
30. المصدر نفسه: 284/1.
31. المصدر نفسه: 102/2.
32. الحيوان: 118/3.
33. الحنين إلى الأوطان، الجاحظ: 38-39.
34. البيان والتّبيين: 99/4
35. الحنين إلى الأوطان: 17.
36. الحيوان: 100/2.
37. البيان والتّبيين: 7/4.
38. المصدر نفسه: 9/4.
39. المصدر نفسه: 404/1.
40. جمهرة اللغة: (أبواب النوادر) 3/ 1292.
41. البيان والتّبيين: 210/1. والحيوان: 132/3.
42. الحيوان: 7/ 152.
43. فضل العرب، ابن قتيبة: 200.
44. ينظر: شرح ابن عقيل: 257/1. والنحو الوافي، عباس حسن: 528/1– 531.
45. ينظر: شرح ابن عقيل: 257/1.
46. ينظر: المصدر نفسه: 257/1-260.
47. البيان والتّبيين: 72/2. (48) المصدر نفسه 95/2
48. الحيوان: 32/4.
49. البيان والتّبيين: 313/2. 50ـ المصدر نفسه /156/3
50. البرهان في علوم القرآن، الزركشي: 770/3.
51. ينظر: الكتاب: 34/1. ودلائل الإعجاز: 108.
52. صفاء الكلمة، د. عبد الفتاح لاشين:194.
53. ينظر: اللغة، فندريس:194 – 195.
54. التقديم والتأخير في القران الكريم، حميد أحمد عيسى العامري:129.
55. البيان والتبيين:135/1.
56. المصدر نفسه: 319/2.

57. المصدر نفسه: 161/3.
58. الفاضل، المبرد:96.
59. البيان والتّبيين: 408/1.
60. الحيوان: 31/6.
61. البيان والتّبيين: 96/2. والصواب: ضيف بدلاً من ضعيف. وهذه الرواية تكرر ذكرها في 78/4.
62. الكامل: 700/2.
63. ينظر: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، د. جابر عصفور: 323.
64. الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر:391.
65. ينظر: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب:171-172.
66. الصحاح: مادة (شبه) 2236/6.
67. حسن الترسل في صناعة الترسل: 14.
68. ينظر: البلاغة العربية:2/ 162
69. المثل السائر، ابن الاثير: 124/2
70. الحيوان: 350/6.
71. البيان والتّبيين: 159/2.
72. الحيوان: 4/ 402.
73. ينظر: المصدر نفسه: 412/4.
74. الحيوان: 142/6 -143
75. فضل العرب: 78.
76. ينظر: لسان العرب: مادة (عرا) 2919/31- 2921.
77. دلائل الاعجاز: 67.
78. مفتاح العلوم: 369.
79. البيان والتّبيين: 102/2. 80 ـالمصدر نفسه: 304/2.
80. الحنين إلى الأوطان: 12-13.
81. المصدر نفسه: 17.
82. ينظر: كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي: 411/5.
83. لسان العرب: مادة (كني) 3944/42.

84. الايضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع: 241.
85. البلاغة العربية: 135-140.
86. البلاغة،المبرّد: 89.
87. الكامل: 749/2.
88. الحيوان: 25/2
89. المصدر نفسه: 472/3. 93ـ المصدر نفسه: 31/6
90. جمهرة اللغة: (باب الدال والراء وما بعدهما) 1 / 628.

المصادر والمراجع

- الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، د. عبد القادر القط، دار النهضة العربية، الطبعة الثانية، 1401هـ - 1981م.
- أدب الكاتب، عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت276ه)، تحقيق محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، 1402ه - 1981 م.
- الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن الخطيب القزويني (ت739هـ)، ضبط حواشيه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت – لبنان، 1424هـ - 2003م.
- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت 794هـ)، تحقيق أبي الفضل الدمياطي، دار الحديث، القاهرة، 1427هـ - 2006 م.
- البلاغة، محمد بن يزيد المبرّد (ت285ه)، تحقيق الدكتور رمضان عبد التوّاب، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية، القاهرة، 1408ه - 1985 م.

البلاغة العربية، أسسها، وعلومها وفنونها، عبد الرحيم حسن حنبكة الميداني، دار القلم، الطبعة الأولى، دمشق، 1416هـ - 1996م.

- البيان والتّبيين، عمرو بن بحر الجاحظ (ت255ه)، تحقيق وشرح عبد السّلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، 1367ه - 1948 م.

تاج العروس من جواهر القاموس، السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي (ت1205هـ)، تحقيق عبد الستار أحمد فرج، مطبعة حكومة الكويت، 1385هـ - 1965م.

- التقديم والتأخير في القران الكريم، حميد أحمد عيسى العامري، دار الشؤون الثقافية، الطبعة الأولى، بغداد، 1996م.

- تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الازهري (ت 370 هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الدار المصرية للتأليف والترجمة، (د.ت).
- جمهرة اللغة، ابو بكر محمد بن يزيد بن دريد (ت285ه)، تحقيق د. رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، بيروت – لبنان، 1987م.
- حسن الترسل في صناعة الترسل، شهاب الدين أبو الثناء محمود بن سليمان الحلبي (ت735هـ)، المطبعة الوهبية، مصر، 1398 هـ.
- الحنين إلى الأوطان، عمرو بن بحر الجاحظ (ت255ه)، دار الراصد العربي، الطبعة الثانية، بيروت – لبنان، 1402ه – 1982 م.
- الحيوان، عمرو بن بحر الجاحظ (ت255ه)، تحقيق و شرح عبد السلام محمد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية، 1386 ه – 1967م.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني (ت474هـ)، تحقيق محمود محمد شاكر،مكتبة الخانجي، الطبعة الخامسة،2004م.
- شرح ابن عقيل، بهاء الدين عبدالله بن عقيل (ت 769هـ)، دار التراث، الطبعة عشرون، القاهرة، 1400هـ – 1990م.
- شرح المفصل، موفق الدين بن علي بن يعيش (ت643هـ)، المطبعة المنيرية، مصر، (د.ت).
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية،اسماعيل بن حماد الجوهري (ت393هـ)، تحقيق أحد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة، بيروت، 1404هـ – 1984 م.
- صفاء الكلمة، د. عبد الفتاح لاشين، دار المريخ للنشر، الرياض، 1403هـ – 1983م.
- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، د. جابر عصفور، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثالثة، بيروت – لبنان، 1992م.
- الفاضل، محمد بن يزيد المبرّد (ت285ه)، تحقيق عبد العزيز الميمني، دار الكتب المصرية بالقاهرة، الطبعة الثانية، 1995 م.
- الفصل والوصل في القران الكريم (دراسة في الأسلوب)، د. منير سلطان، دار المعارف، الإسكندرية، 1997م.
- فضل العرب والتنبيه على علومها، عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت 276هـ)، تحقيق د. وليد محمود خالص، منشورات المجمع الثقافي، الطبعة الأولى، دبي – الإمارات العربية المتحدة، 1998 م.

❖ الكامل، محمد بن يزيد المبرّد(ت285ه)، تحقيق الدكتور محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة، بيروت- لبنان، 1429ه - 2008 م.
❖ الكتاب، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه (180هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الثالثة، 1408هـ - 1988م.
❖ كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هـ)، تحقيق د. مهدي المخزومي ود. ابراهيم السامرائي، دار الشؤون الثقافية، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، العراق، 1984 م.
❖ لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور(ت711هـ)، تحقيق عبد الله علي الكبير و محمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، (د.ت).
❖ اللغة، فندريس، ترجمة:عبد الحميد الدواخلي، محمد القصاص، مكتبة الانجلو المصرية، مطبعة لجنة البيان العربي، 1950م.
❖ اللمع في العربية، ابو الفتح عثمان بن جني (ت 392هـ)، تحقيق د. سميح ابو مغلي، دار مجدلاوي للنشر، 1988م.
❖ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الاثير(ت637ه)، تحقيق د. أحمد الحوفي ود. بدوي طبانة، دار نهضة مصر، القاهرة، (د.ت)
❖ مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف ابن ابي بكر محمد بن علي السكاكي (ت 626 هـ)، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، بيروت لبنان 1407هـ1987م ❖ النحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة، (د.ت).
❖ النّكت في إعجاز القرآن، أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (ت 386هـ)، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، (د.ت).